أحاديث إصلاح القلوب

(٢٨)

مراقبة الله

روى ابن حِبَّان في صحيحه، والضِّياء المقدسيُّ في المختارة، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا كَرِهَ اللهُ مِنْكَ شَيْئًا، فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ**»(١).

هذا تنبيه للعبد أن يصلح سريرته، بلزوم تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ عليه في كُلِّ أمر نهاه الله عنه، ومنعه من فعله ألَّا يفعله في الخلوات، كما قيل:

إذا ما خلوت الدَّهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبَنَّ الله يغفل ساعة ... ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيب

هذا وإنَّ أعظم زاجر للعبد، وأكبر رادع؛ علمه واستحضاره بأنَّ الله يراه وأنَّه عليم به، ومُطَّلع عليه. فإذا حدَّثته نَفْسُه يومًا بريبة، وهو في خلوة لا يراه أحدٌ مِنَ النَّاس، ذكَّر نَفْسَه بأنَّ ربَّ النَّاس مُطَّلع عليه لا تخفى عليه سبحانه خافية.

---

(١) رواه ابن حِبَّان (٤٠٣)، والضِّياء في المختارة (١٣٩٣)، وقال الألبانِيُّ: «حسن لغيره». انظر: السِّلسلة الصَّحيحة (١٠٥٥).

قال الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العلماء على أنَّه أكبر واعظ، وأعظم زاجر نزل مِنَ السَّماء إلى الأرض، وضربوا لذلك مثلًا -ولله المثل الأعلى- قالوا: لو فرض أنَّ هذا البراح مِنَ الأرض فيه ملك قتَّال للرِّجال إن انتهكت حرماته، ذو قُوَّة وعِزَّة ومنعة، وحوله جيوشه، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر ببال أحد من أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك أن يقوم بريبة، ولو قيل لأهل بلد: إنَّ أمير ذلك البلد يبيت عالمًا بكُلِّ ما يفعلونه في اللَّيل مِنَ الخسائس؛ لباتوا مُتَأَدِّبين.

وهذا خالق السَّموات والأرض، الملك الجبَّار، يخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم، إلَّا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزَّاجر الأعظم، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ [النَّحل: ١٩]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

فينبغي علينا جميعًا أن نعتبر بهذا الزَّاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وأن

لا ننساه لئلَّا نهلك أنفسنا»[(١)].

وليحذر المرء من أن تكون حاله كالَّذِين قال الله عنهم: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النِّساء:١٠٨].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطُّرق المباحة، والمُحَرَّمة على عدم الفضيحة عند النَّاس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطِّلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول»[(٢)].

فيجب على المسلم أن يتَّقي الله سبحانه في الخلوت، ولذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فلا تَفْعَلْهُ إذا خَلَوْتَ**»، وذلك لأنَّ نفس العبد ضعيفة إذا كان في مكان خالٍ، فرُبَّما تجرَّأ وأقدم على المعصية؛ لكونه لا يراه أحد مِنَ النَّاس، فعليه أن يتَّقي الله سبحانه في خلواته، ويُذَكِّر نفسه بأنَّ ربَّ العالمين يراه.

فهذا دواء نافع للقلوب وعلاج لأسقامها، لكنَّه يحتاج مِنَ العبد أن

---

(١) العذب النَّمير من مجالس الشَّنقيطيِّ (١/ ٣٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٠٠).

يستذكر هذا دائمًا؛ لأنَّ القلوب تغفل والنُّفوس يصيبها ما يصيبها، فكُلَّما حدَّثته نفسه بأمر يكرهه الله؛ استذكر أنَّ الله سبحانه مُطَّلع عليه، ولا يجعل الله سبحانه في نفسه أهون النَّاظرين إليه.

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطَّلع على العباد، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرَّعد: ١٠]. الأمر سواء عنده، فما يستخفي المرء به، ويحاول أن يوقعه في اللَّيل، وفي أماكن خفيَّة أو يجهر به، كُلُّ ذلك عنده سبحانه سواء.

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فمَن تأمَّل هذا وتدبَّره؛ كان له فيه أعظم زاجر، وأكبر رادع.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الآية: «يخبر تعالى عن علمه التَّامِّ المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر النَّاس علمه فيهم، فيستحيوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحياء، ويتَّقوه حقَّ تقواه، ويراقبوه مراقبة مَن يعلم أنَّه يراه؛ فإنَّه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصُّدور مِنَ الضَّمائر والسَّرائر»[(١)].

وكثيرًا ما تختم آي القرآن في سياق الأعمال وجزائها، بذكر علم الله واطِّلاعه؛ ليوقظ القلوب، ويُنَبِّه العباد على أهمِّيَّة إكمالها وإصلاحها،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٧).

وليُرَغِّبهم ويُرَهِّبهم.

روى ابن أبي الدُّنيا في الزُّهد قال: «كانت دعوة بكر بن عبد الله المزنِيِّ لِمَن لقي من إخوانه أن يقول له: زهَّدنا الله وإيَّاك زهد مَن أمكنه الحرام والذُّنوب في الخلوات، فعلم أنَّ الله يراه؛ فتركه»(١).

وهذا مقام عظيم في الزُّهد ترك الذُّنوب في الخلوات؛ خوفًا مِنَ الله لا رياءً ولا سُمْعةً، وإنَّما من أجل الله، فهذه قربة عظيمة من أعظم القرب الَّتِي يَتَقَرَّب بها العبد الى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال أبو حاتم البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قطب الطَّاعات للمرء في الدُّنيا هو إصلاح السَّرائر وترك إفساد الضَّمائر، والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة قلبه، عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه؛ لأنَّ تَكَدُّر الأوقات وتَنَغُّص اللَّذَّات، لا يكون إلَّا عند فساده»(٢).

ثمَّ روى عن مالك بن دينار أنَّه قال: «إنَّ قلوب الأبرار تغلِي بأعمال البِرِّ، وإنَّ قلوب الفُجَّار تغلِي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم؛ فانظروا ما همومكم رحمكم الله»(٣).

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في الزُّهد (١٣٧).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧).

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في الهم والحزن (١١٢).

أي: تَذَكَّرُوا أنَّ ربَّ العالمين مُطَّلع على هذه الهموم، ممَّا يستوجب على العبد أن يعمل على إصلاح همِّه، وأن يجعل همَّه همًّا واحدًا، وهو الآخرة والفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عن عَبْد اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ، يَقُولُ: «**مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ؛ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا؛ لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ**»(١).

عَنِ الحسن البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إنَّكم وقوف ها هنا تنتظرون آجالكم، وعند الموت تلقون الخبر؛ فخذوا ممَّا عندكم لما بعدكم»(٢).

أي: عند الموت تلقون خبر ما قدَّمتم في هذه الحياة الدُّنيا، فخذوا ممَّا عندكم لما بعدكم، أي: تَزَوَّدوا للآخرة مِنَ التَّقوى، والعمل الصَّالح، وإصلاح السَّريرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]. وهذه الآية تُعَدُّ أصلًا عظيمًا في باب محاسبة النَّفس، وأنَّ الواجب على العبد أن يحاسِب نَفْسَه، وأن ينظر فيما أعدَّ ليوم غدٍ، قبل أن يحاسبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة، فإنَّ مِنَ الخير

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٦)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) رواه ابن حِبَّان في روضة العقلاء (ص٢٨).

للعبد أن ينظر في أعماله، وفيما أعدَّه للقاء ربِّه جَلَّوَعَلَا؛ هل هي أعمالٌ صالحات وطاعاتٌ زاكيات، وبُعدٌ عن المحرَّمات والمنكرات؛ فيسرُّه أن يلقى ربَّه جَلَّوَعَلَا بها؟ أم هي أمورٌ تُسخط الله وتُغضبه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وتُحِلُّ على فاعلها العقوبة؛ فينظر ما الَّذي أعدَّه ليوم غدٍ؟ ويكون ذاكرًا ذلك اليوم، وذاكرًا الوقوف بين يدي الله، وذاكرًا الحساب وعرض الأعمال، وأنَّ كلَّ ما عمله يأتي حاضرًا مكتوبًا مسطورًا في كتابٍ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

وفي ذلك اليوم يقول الربُّ جَلَّوَعَلَا: «**يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(١)]؛ أليس الجدير بالعبد -والأمر كذلك- أن تكون المحاسبة لنفسه الآن؟! في وقت العمل؟! فإذا وجد خيرًا؛ حمد الله على ما يسَّر وأعان، وإذا وجد غير ذلك أصلح نفسه، بدل أن يلوم نفسه يوم القيامة؛ لأنَّه في ذلك اليوم ليس هناك مجال للتَّوبة والإنابة.

وفي هذا المعنى يقول الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقَّة:١٨]»[(١)].

ومحاسبة النَّفس كما بيَّن العلماء على قسمين: محاسبة بعد العمل، ومحاسبة قبل العمل.

أمَّا المحاسبة الَّتي بعد العمل: فهي أن ينظر العبد إلى الَّذِي مضى من أعماله، والَّذِي تقدَّم من أفعاله، والَّذِي سيحاسبه عنه ربُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينظر في أعماله الماضية في حياته؛ هل هي على الطَّاعة والسَّداد، أم هي على العصيان والانحراف، أم أنَّه مخلِّط بين ذلك؟ فينظر في الفائت مِنَ الأعمال: إن كانت زاكية، صالحة، مستقيمًا فيها على طاعة الله حمد الله، وإن كان فيها عصيان ومخالفات، وتفريط في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تاب وأناب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾، أي: لا تيأسوا فالله عَزَّوَجَلَّ يقبل التَّوبة، مهما بلغ الإثم وعظُم الجرم، فهو يتوب على التَّائبين. فتوبةٌ صادقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتوبةٌ نصوحٌ من كلِّ ذنب؛ خير من أن يلقى العبدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بذنوبه الجِسام، وَمعاصيه الكُثار. فقد جاءت شريعة الإسلام ببابٍ عظيمٍ مبارك ألا وهو باب التَّوبة، وأخبرنا نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ: «**التَّائِب مِنَ الذَّنْبِ**

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٤٤٥٩).

كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»[١]، وأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ «**النَّدَم تَوْبَةٌ**»[٢]، وأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[٣]، ولا يزال باب التَّوبة مفتوحًا ما لم يغرغر العبد، كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[٤]، وقال: «**وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ الْمَغْرِبِ؛ فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ**»[٥].

والنَّوع الثَّاني مِنَ المحاسبة: محاسبة قبل العمل، وهو النَّظر في الأعمال الَّتِي سيقوم بها؛ لا يخطو خطوة ولا يسير طريقًا إلَّا مُتَفقِّهًا في طريقه، كما قال بعض السَّلف: «**من فِقْه الرَّجُل مأكله ومشربه وممشاه**». أن يتفقَّه فيما يخطو إليه، وفيما يُقدم عليه من عمل، هل هو مشروع مأذونٌ به أم هو حرام؟ كلُّ ذلك يزنه بميزان الشَّرع، فيحاسب نفسه على العمل قبل أن يفعله؛ لتكون أعماله موزونة بميزان شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليكون فيها موافقًا

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٥) رواه أحمد (١٦٧١)، والبزَّار في مسنده (١٠٥٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ في الإرواء تحت حديث (١٢٠٨).

لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه سالكا هديه.

وأسأل الله الكريم، ربَّ العرش العظيم، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا؛ أن يُصلح لنا شأننا كلَّه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللَّهمَّ آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.